ألف ليلة وليلة
في المركز من دائرة الأدب العالمي

د.عبد النبي اصطيف

هل يُعدّ كتاب ألف ليلة وليلة، من الأدب العالمي؟

سؤال قد يبدو للوهلة الأولى سؤالاً عادياً يتَّصل بحقيقة موقع هذا الكتاب في دائرة الأدب العالمي، وربما عدَّه بعضهم مجرد سؤال بلاغي، لأن الإجابة عنه لا تقتضي طويل تفكير، فهو ليس أدباً عالمياً فحسب ولكنه يقع في المركز من دائرة الأدب العالمي، إنه كتاب كوني Universal. وكيف له أن يكون غير ذلك وقد كانت مدخلاته عالمية، إذ اشتركت في تأليفه أمم وشعوب عديدة. ولذا فإن من الطبيعي أن تكون مخرجاته عالمية. ولا أدل على ذلك من تنوع الإشارات الثقافية فيه وغناها.

كيف لا يعدُّ هذا الكتاب أدباً عالمياً وقد تجاوز في انتشاره الزمان والمكان، وتم تداوله عبر العصور شرقاً وغرباً، وشمالاً وجنوباً. وهو فضلاً على كل ما تقدَّم كتاب عالمي حيٌّ، لا يزال يعيش في مختلف وجوه الحياة الإنسانية: في لغاتها، وفنونها (من رسم، ونحت، وعمارة، ورقص، وموسيقا، وأدب، ومسرح، وسينما، ورسوم متحركة) وفكرها، وثقافاتها المتنوعة. إنه على حد تعبير خورخي لوي بورخيس جزء لا يتجزأ من الذاكرة الجمعية للإنسانية.

والحقيقة أن كتاب ألف ليلة وليلة أو «الليالي العربية»The Arabian Nights، كما يحب الغربيون أن يدعوه، كتاب شرقي-عربي- إنساني في مجمله، وهو كتاب مولَّد Hybrid Book، تشي بنيته الفنية الأصلية: الحكاية –الإطار Frame-tale بالموروث الهندي، في حين تعود حلقة حكايات السندباد البحار إلى التقليد السردي الشفوي اليوناني، وتتصل حكاية علاء الدين بالصين[1]، وتدل أسماء شخصياته الرئيسية (شهريار، وشهرزاد، ودنيازاد، وشاه زمان) على أن

الكتاب قد أمضى جزءاً من حياته في بلاد فارس، ولذا فإننا لا نستغرب أن يرى المسعودي العمل مستمداً من الكتاب الفارسي: هزار أفسانه (ألف حكاية). بينما تؤكد حكاياته في محتواها وقيمها وتقاليدها الاجتماعية بأن الليالي متجذرة في الثقافة العربية-الإسلامية[٢].

صحيح أن أداة الكتاب هي اللغة العربية، وأن الثقافة التي تحتضنه هي الثقافة العربية-الإسلامية، ولكنه في نهاية المطاف **نتاج جمعي للعديد من الأمم والشعوب، الشرقية أساساً، التي عُرفت باهتمامها بفن السرد، أداةً تُقاوم بها الموت، وتواجِه بها تيار الزمن. إنه جزء لا يتجزأ من متن «الأدب العالمي»**. بل إنه رمز لهذا الأدب، فهو من جهة عابر للعصور والأزمنة، ولم يعبأ في يوم بحدِّ الزمان، وهو من جهة أخرى عابر للحدود والتخوم، ولم يحتج في أية مناسبة إلى جواز سفر أو تأشيرة دخول إلى أي من فسح الآداب القومية، وهو من جهة ثالثة نص مُعلِّم، أستاذ في فن الغواية؛ غواية الثقافات الأخرى ودفعها إلى التأقلم مع الثقافة المصدر، ثقافته التي انبثق منها وهي الثقافة العربية-الإسلامية (مع أن بعض قصصه لا يعير كبير اهتمام لقيم هذه الثقافة)، مثلما هو أستاذ في القدرة على تجاوز العوائق الثقافية للآخر، بل اقتحامها، والإقامة بين جنبات ثقافة الآخر بكل ما ينبغي من ترحاب ورضا.

ولاشك أنه كان للترجمة دور مهم في تعزيز القدرة الخارقة لهذا النص الأساسي من نصوص الأدب العالمي على تجاوز حدِّي الزمان والمكان وعائق الثقافة، إذ سهَّلت عملية عبوره إلى الثقافات الأخرى، واستقراره في آدابها وفنونها دون معاناة تذكر، إذ تأقلمت هذه الآداب والفنون معه، مثلما تأقلم معها، وغدا ضيفاً مرحَّباً به في كل منزل، بل أصبح هو رب المنزل، على حد تعبير الشاعر العربي.

يكتب أنطوان غالان Antoine Galland (١٦٤٦-١٧١٥) في مقدمته للطبعة الأولى من ترجمته (الأولى أوروبياً بل عالمياً) والتي ظهرت قبل نحو ثلاثة قرون، وبالتحديد عام (١٧٠٤م) فيما تنقله عنه ساندرا نداف:

«لسنا بحاجة إلى أن ننبه القارئ على جمال القصص المتضمَّنَة في هذا العمل. إنها توصي بنفسها. وأنت بحاجة فقط إلى أن تقرأها لتوافق على أننا لم نر قط أي شيء من هذا النوع من الجمال، في أية لغة»[٣].

لقد كان غالان، كما يصفه ليتمان، «قصاصاً موهوباً بصيراً بالقصة الجيدة بارعاً في إعادة روايتها، وأدى هذا إلى نجاح ترجمته وكان موفقاً أيضاً من ناحية المادة التي وقعت في يده. وقد بدأ بترجمة قصة السندباد البحري من مخطوط أصله غير محقق، ثم عرف أنها جزء من مجموعة كبيرة من الحكايات اسمها ألف ليلة وليلة. وأسعده التوفيق إلى حد عجيب بعد ذلك بأن جاءه من الشام نسخة خطية لهذا الكتاب في أربعة مجلدات، هي أقدم النسخ

المعروفة وتشتمل على أحسن ما بقي من متن الكتاب. وما زالت المجلدات الثلاثة الأولى من هذه النسخة الخطية محفوظة في المكتبة الأهلية (الوطنية) بباريس. أما المجلد الرابع فكان مصيره الضياع»[٤].

وإثر النجاح المنقطع النظير لترجمته لقصة السندباد، وبعد حصوله على مخطوطة الليالي من سوريا، بدأ بترجمة النص، ونشره كاملاً بين عامي (١٧٠٤-١٧١٧)[٥]، هذا النص الذي انتشر، بترجمته من الفرنسية إلى اللغات الأخرى، انتشار النار في الهشيم. فخلال القرن الثامن عشر، وبالتحديد بين عامي (١٧١٢ -١٧٩٤)، تُرجم نص غالان الفرنسي إلى مجموعة كبيرة من اللغات الأوروبية: الألمانية، والإيطالية، والهولندية، والدانماركية، والفلمنكية، والروسية، بل حتى إلى العربية.

وهكذا تجاوز هذا **النص غير النهائي، والأساسي، في آن معاً، حدَّي الزمان والمكان، وعائقي اللغة والثقافة**، وانسرب في آداب هذه اللغات، مطلقاً العنان لمترجميه ليفعلوا به ما يشاؤون، وما يرونه مناسباً لتعزيز انتشار ترجماتهم له مَبيعاً وقراءة. ذلك أن كل مترجم كان يُعيد في الحقيقة كتابة هذا النص (والترجمة في نهاية المطاف إعادة كتابة للنص المصدر تستند إلى فهم المترجم له واستيعابه لدلالاته) على نحو يخدم معاييره الشخصية والجمالية والأخلاقية والسياسية.

لقد تحوَّل **النص العربي غير الثابت، وغير المحقَّق، ومجهول النسب**، بفعل الترجمات التي لا تحصى، والمتميزة بأصالة تعبيرها عن وجهة نظر أصحابها الخاصة بهم، إلى **نص غير شرعي في نسبته للعربية وأدبها، مع بقائه عنواناً على ثقافته الأصل -الثقافة الشرقية- في آن معاً**. ونجح من ثَمَّ في أن يستوطن آداب أوروبا كلها، بل آداب العالم، بعد أن استوطن قلوب قرائه وأرواحهم، وأنفسهم، وأصبح نصاً متفاعلاً مع نصوص هذه الآداب، متخلِّلاً لنسيجها الإنشائي على نحو لافت للأنظار، حتى أنه يمكن أن يشكِّل محوراً أساسياً في التاريخ الأدبي لأوروبا وأمريكا الشمالية (وربما الجنوبية كذلك) في القرنين التاسع عشر والعشرين، وهو ما تحدثت عنه ساندرا نداف في بحثها المعنون بـ «ألف ليلة وليلة بوصفه أدباً عالمياً»[٦] والذي شاركت فيه في مجلد **رفيق روتلدج للأدب العالمي**. وهكذا نراها تكتب، بعد **استعراضها لدور عامل الترجمة في استدامة الاهتمام بكتاب ألف ليلة وليلة في مختلف آداب العالم**، أن المرء:

«يمكن أن يُطوِّر على نحو منتِج تاريخاً للأدبين الأوروبي والأمريكي في القرنين التاسع عشر والعشرين مستعمِلاً ألف ليلة وليلة بوصفه المصدرَ المولِّد. ويشهد كُتَّاب غربيون لا حصر لهم –بيكفورد، وكولريدج، وديكنز، ومالارميه، وستيفسنون، وبروست، وبيتس، وفون هوفمنشتال، ومارك توين، وبورخيس[٧] من ضمن كتَّاب آخرين- على تأثير هذا العمل وأهميته

فـي تطوير خيالهـم الأدبي الخاص بهـم. وكان شكلا القصـة القصيرة، والقصـة العجائبية contefantastique بشـكل خاص مستجيبَيْن للإمكانات التناصّيةلـ ألف ليلة وليلة، ومثالان يكفيـان – في هـذا المقام–: تمثل قصة تيوفيـل غوتييـهThéophile Gautier «الليلة المائة واثنتيـن» «La Mille et deuxième nuit» (١٨٤٢)، وقصـة إدغـار ألن بـو Edgar Allan Poe «حكايـة شهـرزاد الثانيـة بعـد الألـف» «The Thousand-and-Second Tale of Scheherazade (١٨٤٥) **افتتاناً عاماً بمصير شهرزاد، فور مضيها إلى ما وراء زمن سرد الألف ليلة وليلة، إلى الزمن الحقيقي بوصفها زوجة السلطان شهريار**»[٨].

والأمـر لا يقتصـر على من تقدَّم ذكرهم مـن الكتَّاب، لأن تأثير الليالـي العربية ممتد حتى يومنـا هذا، فهو حضور مستـدام بالترجمة إلى مختلف اللغات الحية، والدرس البحثي والنقدي الذي ينتج موسوعات وكتباً فردية[٩] وأخرى جمعية ومؤتمرات[١٠] ورسائل جامعية[١١]، وأعداداً خاصـة لمجـلات مرموقة مثـل **مجلـة الأدب العربـي**[١٢] Journal of Arabic Literature (ليدن)، **وفصول في النقد الأدبي** (القاهرة)، وغيرهما إلى جانب تدريسه في مساقات خاصة في مختلف الجامعـات الغربية. فعلى سبيل المثـال يمكن أن يشير المرء إلى تأثير كتاب الليالي العربية في رواية جون بـارث John Barth القصيرة والتي تحمل عنوان دنيازديادDunyazdiad (١٩٧٢)، وراوية إيتالو كالفينوItalo Calvino **كما لو أن مسـافراً في ليلة شـتاء**، ومجموعة سلمان رشدي القصصية **هارون وبحر القصص** Haroun and the Sea of Stories (١٩٩٠)، ورواية د.إم. توماس D. M. Thomas آرارات Ararat (١٩٨٤)، ورواية الروائي الأسترالي أنتوني أونيل Anthony O`Neill «**شهرزاد: حكاية**» Scheherazade: A Tale (٢٠٠١)، ورواية ربيع علم الدين، الحكواتي The Hakawati (٢٠٠٨)، وراويـة عالية يونـس لقاء الليل The Night Counter (٢٠١٠)، ورواية انتظار حسين **موت شهرزاد** The Death of Scheherazade (٢٠٠٢) وغيرها.

ملاحظات حول ترجمة **ألف ليلة وليلة** وانتشارها ودخولها دائرة الأدب العالمي:

أولاً: من الملاحظ أن **المبادرة الفردية** بترجمة **الليالي العربية** كان لها دور مهم، بل حاسم فـي انتشارهـا عالمياً ودخولها من ثَمَّ دائـرة الأدب العالمي. ذلك أن ترجمـة أنطوان غالان لـ ألف ليلة وليلة إلى الفرنسية، ثم ترجمة كل من إدوارد لين وريتشارد بيرتن اللاحقتين للكتاب إلـى الإنكليزية كانـت وراء التداول الواسع لهذا الكتاب؛ لقد كانت هذه الترجمات التي قام بها أفـراد موهوبون في ميدان الفـن اللفظي، وراء انتشار هذه النصوص في مختلف أرجاء العالم القديم، وتجاوز حدي الزمان والمكان وعائقي اللغة والثقافة. ومن الملاحظ أيضاً أن أصحاب هـذه المبادرات كانوا أدباء بكل معنى الكلمة، غير أن إسهامهم الترجميّ قد طغى على جوانب كتاباتهم الأخرى، وعرفوا به أكثر مما عرفوا بإسهاماتهم الأخرى.

ولكـن هل ثمة من عظة نستقيها من استعراض دور الترجمة في إدخال الليالي العربية إلى المركز من دائرة الأدب العالمي؟

• أول مـا ينبغـي أن نتعلمـه من تأمل هذا الدور هو أن نعنى بالترجمة: تدريساً ودراسة وبحوثاً وممارسـةً، ونتابع بذلك مسيرة الآباء والأجداد، ولاسيَّما ما قدموه للحضارة الإنسانية من خلال «**بيت الحكمة**».

• وثاني ما ينبغي أن نلتفت إليه هو الأخذ بزمام المبادرة في عملية الترجمة التي تتم مـن اللغـة العربية إلى اللغـات العالميـة، أو تلك التي تتم من تلـك اللغات إلى اللغـة العربية، ولاسيمـا المؤلفات الأدبية التي تسهم في تعزيز قيم الأمة التي تحفظ عليها هويتها واحترامها لذاتها ولـ«الآخر».

• وثالـث مـا يجب علينا تذكره هو ضرورة إنصاف المترجميـن، ومنحهم ما ينبغي لهم مـن تقدير مـادي ومعنوي. صحيح أننـا لا نستطيع أن نبلـغ مقام الخليفة المأمـون في مكافأته للمترجمين بمنحهم وزن ما يترجمونه من كتب ذهباً، غير أننا نستطيع أن نكافئهم بداية بمعادلة عملهـم بعمـل نظرائهم من المؤلفين، وقد نزيد على ذلك إذا مـا كانت الأعمال التي يترجمونها تتطلـب قـدرات خاصة، وجهوداً مضنيـة، وتأهيلاً عالياً في اللغتين: لغـة المصدر ولغة الهدف، وفي الثقافتين، وفي الموضوع المترجَم. وبذلك نرجو أن نتمكن من توطين ما نترجم من تجارب الآخرين في ثقافتنا العربية، ليؤدي دوره الحيوي في تحفيز عملية الإبداع في هذه الثقافة.

ثانيـاً: ومـن الملاحظ كذلك أن نص هذه الليالي نص مولِّد، مُلهِـم، فقد كان وراء إنتاج كمٍّ هائل من الأعمال الأدبية والفنية في مختلف ثقافات العالم: شرقيها وغربيها شماليها وجنوبيها.

ثالثاً: وإنَّ هذا النص نص كوني universal من جانب، وشرقي/ عربي من جانب آخر، في حين إن متلقيه المنتشرين على مساحة العالم كله لا يفكرون في هوية منتجه بمقدار تفكيرهم بمـا يمكن أن ينطوي عليه من تضمّنات إنسانيـة تعنيهم مثلما تعني سائر الإنسانية، غير أنهم من ناحية أخرى لا ينسون أنه شرقي النسب، عربي اللسان.

رابعـاً: إنَّ مـا سهَّـل عملية انتقاله من شرق العالم إلى غربه، ثم إلـى كل زاوية فيه أنه أُنتِجَ في مناخ من التسامح والعيش المشترك بين الأمم والشعوب وأتباع الديانات المختلفة، وبأداة عالميـة كانت لغة العلم، والفكـر، والحضارة هي **اللغة العربية** التي كانـت اللغة المشتركة في العالم الإسلامي، ولغة الحضارة والعلم والمعرفة في سائر العالم.

خامسـاً: إنَّه نتاج عولمة Globalization حميدة للإبداع الإنساني الذي لا يعبأ بأية حدود سياسيـة أو لغويـة، أو قومية، أو عرقية، بفضل ما يحمله من قيـم إنسانية أسهمت في تشكيلها أكثر من أمة، أو شعب، أو قوم، فكان بمنتجيه، ومتلقيه نصاً إنسانياً بحق.

الهوامش

(١)- يمكن أن يذكر المرء من مؤشرات صلة ألف ليلة وليلة بالصين، التي يشار إليها في الليالي على أنها إمبراطورية بعيدة يحكمها الإمبراطور فغفور، جزر الواق واق، وحكاية قمر الزمان وبدور التي تدور أحداثها في مملكة (غَيور)، وحكاية سيف الملوك التي يزور فيها البطل الصين بحثاً عمن يحب، وحكاية الأحدب، وغيرها. وانظر:
Ulrich Marzolph and Richard van Leeuwen. Eds.. The Arabian Nights Encyclopaedia. 2 vols. (Santa Barbara. Calif.. and Oxford: ABC-CLIO Press. 2004). pp. 521522-.

وانظر كذلك:
Wen-chin Ouyang. «The Arabian Nights in English and Chinese Translations: Differing Patterns of Cultural Encounter«. SOAS. University of London.

(٢)- انظر:
F. RofailFarag . »The Arabian Nights: A Mirror of Islamic Culture in The Middle Ages«. Arabica. T. 23. Fasc. 2 (Jun.. 1976). pp. 197211-

(٣)- انظر:
Sandra Naddaff . »The Thousand and One Nights as World Literature«. in:
The Routledge Companion to World Literature.
Edited by Theo Dhaen. David Damrosch. and DjelalKadir
(Routledge. New York and London. 2014). p. 487.

(٤)- ليتمان، ألف ليلة وليلة: دراسة وتحليل، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، ١٩٨٢، ص ٣٦-٣٧.

(٥)- ظهرت المجلدات من ١-٦ عام ١٧٠٤، وظهر المجلد السابع عام ١٧٠٦، والثامن عام ١٧٠٩، والتاسع والعاشر عام ١٧١٢، في حين ظهر المجلدان الحادي عشر والثاني عشر عام ١٧٠٧، أي بعد وفاة الرجل بعامين.

(٦)- انظر:
Sandra Naddaff . »The Thousand and One Nights as World Literature«. in:
The Routledge Companion to World Literature.
Edited by Theo Dhaen. David Damrosch. and DjelalKadir
(Routledge. New York and London. 2014). pp.487496-.

(7)-Beckford. Coleridge. Dickens. Mallarme. Stevenson. Proust. Yeats. von Hofmannsthal. Twain. Borges.

(٨)- انظر:
-Sandra Naddaff . »The Thousand and One Nights as World Literature«. in:
The Routledge Companion to World Literature. p. 491.

وانظر للمزيد من المعلومات عن تأثير الليالي في الأدب الإنكليزي:
- Peter L.Caracciolo. ed.. The Arabian Nights in English Literature: Studies in the Reception of the Thousand and One Nights into British Culture (Macmillan Basingstoke; St Martin's Press. New York. 1988).

وانظر للمزيد من المعلومات عن تأثير الليالي في الأدب الغربي فصل روبرت إروين المعنون بـ«أطفال الليالي» في:
- Robert Irwin. »The Children of the Nights«. in
Robert Irwin. The Arabian Nights: A Companion (Tauris Park Paperback. London. 2004). pp.237292-.

(٩)- انظر على سبيل المثال:
- Marina Warner. Stranger Magic: Charmed States and the Arabian Nights (Harvard UP. 2012).

(١٠)- انظر الكتب الآتية التي تضم وقائع ثلاثة مؤتمرات عن كتاب الليالي العربية:
- The Arabian Nights in Historical Context: Between East and West. Edited by Saree Makdisi and Felicity Nussbaum. (Oxford University Press Oxford. 2008);
- Ulrich. Marzolph. Editor. The Arabian Nights in Transnational Perspective (Wayne State University Press. Detroit. 2007).
- Yuriko Yamanaka and Tetsuo Nishio (Editors). The Arabian Nights and Orientalism: Perspectives from East and West. (I. B. Tauris. London and New York. 2006).

(١١)- انظر رسالتي كل من محسن جاسم الموسوي وفريال غزول اللتين نُشرتا فيما بعد في كتابين منفصلين:
- Ali. MuhsinJassim. -Scheherazade in England: A Study of Nineteenth-Century English Criticism of the Arabian Nights (Three Continents Press. Washington. 1981).
- Ghazoul. Ferial. Nocturnal Poetics: The Arabian Nights in Comparative Context. (American University in Cairo Press. Cairo. 1996).

(١٢)- انظر العدد الخاص من المجلة الذي صدر عن دار بريل للنشر في ليدن:
- The Thousand and One Nights. Journal of Arabic Literature. Vol. 36. No.3 ،(Brill. Leiden. 2005).

مكتبة البحث

١- ليتمان، ألف ليلة وليلة: دراسة وتحليل، دار الكتاب اللبناني ومكتبة المدرسة، بيروت، ١٩٨٢.
2- Ali. MuhsinJassim. Scheherazade in England: A Study of Nineteenth-Century English Criticism of the Arabian Nights (Three Continents Press. Washington. 1981).
3- Caracciolo. L.(ed.). The Arabian Nights in English Literature: Studies in the Reception of the Thousand and One Nights into British Culture (Macmillan Basingstoke; St Martin's Press. New York. 1988).
4- Farag. F. Rofail . «The Arabian Nights: A Mirror of Islamic Culture in The Middle Ages». Arabica. T. 23. Fasc. 2 (Jun.. 1976). pp. 197211-.

5- Ghazoul, Ferial, Nocturnal Poetics: The Arabian Nights in Comparative Context, (American University in Cairo Press, Cairo, 1996).
6- Irwin, Robert, «The Children of the Nights», in: Robert Irwin, The Arabian Nights: A Companion (Tauris Park Paperback, London, 2004), pp. 237292-.
7- Makdisi, Saree and Felicity Nussbaum (editors), The Arabian Nights in Historical Context: Between East and West, Edited by, (Oxford University Press Oxford, 2008).
8- Marzolph, Ulrich and Richard van Leeuwen, Eds., The Arabian Nights Encyclopaedia, 2 vols, (Santa Barbara, Calif., and Oxford: ABC-CLIO Press, 2004), pp. 521522-.
9- Marzolph, Ulrich, Editor, The Arabian Nights in Transnational Perspective (Wayne State University Press, Detroit, 2007).
10- Naddaff, Sandra, «The Thousand and One Nights as World Literature», in:
-The Routledge Companion to World Literature, Edited by Theo Dhaen, David Damrosch, and DjelalKadir (Routledge, New York and London, 2014), pp.487-496.
11- Ouyang, Wen-chin, «The Arabian Nights in English and Chinese Translations: Differing Patterns of Cultural Encounter», SOAS, University of London.
12- Warner, Marina, Stranger Magic: Charmed States and the Arabian Nights (Harvard UP, 2012).
13- Yamanaka, Yuriko and Tetsuo Nishio (Editors), The Arabian Nights and Orientalism: Perspectives from East and West, (I. B. Tauris, London and New York, 2006).
14- The Thousand and One Nights, Journal of Arabic Literature, Vol. 36, No. 3, (Brill, Leiden, 2005).